الفصل الرابع

obeikandl.com

obeikandl.com

وجوب التحاكم إلى الشريعة الإسلامية

لقد أوجب الله سبحانه وتعالى التحاكم إلى ما شرعه سبحانه وبينه رسوله ، وأمر سبحانه وتعالى بترك التحاكم إلى الطاغوت ، فقال سبحانه : ﴿ **ألم تَرَ إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أُمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً** ﴾[1] .

ونفى سبحانه وتعالى الإيمان عن الذين يتحاكمون إلى غير شريعة الله في أمورهم وما يحدث بينهم فقال سبحانه وتعالى : ﴿ **فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويُسلموا تسليما** ﴾[2] .

فالتحاكم إلى الله ورسوله من مقتضيات الإيمان ولوازمه .

وإليك المباديء والأسس التي تقتضي وجوب التحاكم إلى شرع الله وإعتبار ذلك من صلب الايمان ومقتضاه .

---

(١) سورة النساء آية ٦٠ .

(٢) سورة النساء آية ٦٥ .

أولاً : تحقيق العبودية لله تعالى

إن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان لعبادته والتقرب إليه بالطاعة والمحبة ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون* ما أُريد منهم من رزق وما أُريد أن يطعمون** ﴾[1] وجعل المثوبة على حسن هذه الطاعة وصحتها ، والجزاء على التقصير في الطاعة أو رفضها ، فكان الإنسان مدار الابتلاء والاختبار ، فقال عز من قائل : ﴿ **تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير* الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور** ﴾[2] وقال سبحانه : ﴿ **أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يُفتنون ولقد فتنّا الذين من قبلهم فَلَيَعلمنَّ الله الذين صدقوا وليَعلَمنَّ الكاذبين** ﴾[3] .

فالاختبار والابتلاء يتضمن الصبر عن المعاصي والآثام ، والاستقامة على الطاعة والمحبة لله سبحانه وتعالى ،ولا يكونذلك إلا بتحقيق العبودية لله سبحانه وتعالى .

والعبادة : هي إسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة . فالصلاة ، والزكاة ، والصيام والحج ، وصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وبر الوالدين ، وصلة الأرحام ، والوفاء بالعهود ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والجهاد للكفار والمنافقين ، والإحسان للجار

---

(١) سورة الذاريات ٥٦ ـ ٥٧ .

(٢) سورة الملك آية ١ ـ ٢ .

(٣) سورة العنكبوت آية ٢ ـ ٣ .

واليتيم ، والمسكين ، وابن السبيل ، والمملوك من الآدميين ، والبهائم ، والدعاء ، والذكر ، والقراءة ، وأمثال ذلك من العبادة .

وكذلك حب الله ورسوله ، وخشية الله والإنابة إليه ، وإخلاص الدين له ، والصبر لحكمه ، والشكر لنعمه ، والرضى بقضائه ، والتوكل عليه ، والرجاء لرحمته ، والخوف من عذابه . وأمثال ذلك : هي من العبادة لله[1] .

وذلك : أن العبادة لله هي الغاية المحبوبة له ، والمرضية له ، والتي خلق الخلق لها ، كما قال الله تعالى : ﴿ **وما خلقتُ الجنَّ والإنسَ إلا ليعبدُون** ﴾[2] .

ومقتضى العبادة لله أن يذعن العبد لله إذعاناً كاملاً ، وأن يلتزم شرع الله في جميع ما يأتي أو يذر ، وأن يجعل حياته كلها رهن أوامر الله ونواهيه .

والانسان إن لم يخضع لله في الطاعة والعبودية خَضَعَ لسواه من البشر ، أو الشجر ، أو الحجر ، أو النظم الفاسدة ، والعقائد الضالة .

والإنسان إن لم ينقاد لله في جميع شأنه ، أسلم قياده للطاغوت ، وقد نُهي عن ذلك قال الله تعالى : ﴿ **ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت** ﴾[3] .

فأي خضوع لأية سلطة غير الله ، هو خضوع للطاغوت ، سواء كان هذا الخضوع للأهواء والشهوات ، أو للقوة والبطش ، أو للقوانين الوضعية والنظم البشرية وغير ذلك ، وسواء كان هذا الخضوع لها عن قناعة أو تكبر وعناد ، فإنه خضوع للطاغوت ، وخضوع لغير الله .

---

(١) العبودية لابن تيمية .

(٢) سورة الذاريات آية ٥٦ .

(٣) سورة النحل آية ٣٦ .

فالحاكم الذي يسوس الناس بغير ما أنزل الله ، ويأخذ شرعه وقوانينه من زبالات عقول الافرنج الغربي أو الشرقي ، فقد عَبَدَ ذلك المصدر الذي يأخذ عنه ، وخضع له خضوع العبد الذليل .

فالحاكم الذي يصل إلى الحكم بغير الحق تجد في قلبه ذلة وخضوع لمن أوصلوه للحكم ، وإن كان في الظاهر مقدماً فيهم ، رئيساً عليهم ، فهو في الحقيقة يرجوهم ويخافهم ، فيبذل لهم الأموال ، ويعطيهم العهود والمواثيق ، ويعفو عن حقوقه عندهم ، ويخون أمته من أجلهم .

فالعبودية متحققة في الإنسان لا محالة ، فإما أن تكون لله الذي خلقه ورزقه ، وإما أن تكون للهوى والطاغوت .

ومن كان عبداً لغير الله يكون مشركاً .

وبعض هؤلاء الطغاة الذين يرفضون العبودية لله ، إنما يرفضونها استكباراً وعتواً ، ولذا كانوا أعظم إشراكاً بالله ، وكانوا أكثر قربى من اليهود لأنهم شركاء في ذات الصفة ـ الكبر والشرك ـ قال الله تعالى في اليهود : ﴿ **أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقاً تقتلون** ﴾[1] .

فهؤلاء أخذوا من صفات اليهود فتطبعوا بها ، فتراهم يتكبرون على الله ، ويفسدون في الأرض ، ويقتلون الدعاة والعلماء وشباب الإسلام ، ولا تجد في قلوبهم رأفة ولا رحمة ، بل إن كثيراً من هؤلاء يقيمون الأفراح ويشربون الخمور على أشلاء الأجسام الممزعة ، والرؤوس المتطايرة ، ﴿ **وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً** ﴾[2] وبذلك يعطلون الغاية التي خلق الله الجن والإنس من أجلها .

---

(١) سورة البقرة آية ٨٢ .

(٢) سورة الأعراف آية ١٤٥ .

« إن هنالك غاية معينة لوجود الجن والإنس . تتمثل في وظيفة من قام بها وأداها فقد حقق غاية وجوده ؛ ومن قصر فيها أو نكل عنها فقد أبطل غاية وجوده ؛ وأصبح بلا وظيفة ، وباتت حياته فارغة من القصد ، خاوية من معناها الأصيل ، الذي تستمد منه قيمتها الأولى . ولقد انفلت من الناموس الذي خرج به إلى الوجود ، وانتهى إلى الضياع المطلق ، الذي يصيب كل كائن ينفلت من ناموس الوجود الذي يربطه ويحفظه ويكفل له البقاء .

فالوظيفة التي تربط الجن والإنس بناموس الوجود . هي العبادة لله . أو هي العبودية لله ، أن يكون هناك عبد ورب ، عبد يَعبد ، ورب يُعبد . وأن تستقيم حياة العبد كلها على أساس هذا الاعتبار .

ومدلول العبادة لا بد أن يكون أوسع وأشمل من مجرد إقامة الشعائر ، فالجن والإنس لا يقضون حياتهم في إقامة الشعائر ؛ والله لا يكلفهم هذا . وهو يكلفهم ألواناً اخرى من النشاط تستغرق معظم حياتهم . وقد لا نعرف نحن ألوان النشاط التي يكلفها الجن ؛ ولكننا نعرف حدود النشاط المطلوب من الإنسان . نعرفها من القرآن من قول الله تعالى : ﴿ **وإذ قال ربك للملائكة : إني جاعل في الأرض خليفة** ﴾[1] . ففي الخلافة في الأرض إذن عمل هذا الكائن الإنساني . وهي تقتضي ألواناً من النشاط الحيوي في عمارة الأرض ، والتعرف إلى قواها . وطاقاتها ، وذخائرها ومكنوناتها ، وتحقق إرادة الله في استخدامها وتنميتها وترقية الحياة فيها . كما تقتضي الخلافة القيام على شريعة الله في الأرض لتحقيق المنهج الإلهي الذي يتناسق مع الناموس الكوني العام .

فالعبادة هي : التوجه إلى الله بكل حركة في الضمير ، وكل حركة في

---

(١) سورة البقرة آية ٣٠ .

الجوارح ، وكل حركة في الحياة ، التوجه بها إلى الله خالصة ، والتجرد من كل شعور آخر ؛ ومن كل معنى غير معنى التعبد لله .

وبذلك يتحقق معنى العبادة ؛ ويصبح العمل كالشعائر والشعائر كعمارة الأرض ، وعمارة الأرض جهاد في سبيل الله ، والجهاد في سبيل الله كالصبر على الشدائد والرضى بقدر الله . . كلها عبادة ؛ وكلها تحقيق للوظيفة التي خلق الله الجن والإنس لها ؛ وكلها خضوع للناموس العام الذي يتمثل في عبودية كل شيء لله دون سواه »[1] .

فكمال المخلوق إنما تكون في كمال عبوديته لله ، وكلما ازداد العبد تحقيقاً للعبودية إزداد كماله وعلت درجته ، وكان قريباً من الله ، قريباً من الحق ، قريباً من دعوة الأنبياء والمرسلين الذين دعوا بهذه الدعوة ، قال الله تعالى : ﴿ **ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله** ﴾[2] وبالعبودية وصف الله الأنبياء والأصفياء ، وبها نعت أكمل الخلق وأحبهم له فقال سبحانه وتعالى : ﴿ **سبحان الذي أسرى بعبده ليلا** ﴾[3] فقد سمى محمداً صلى الله عليه وسلم عبداً ، ولو لم تكن هذه أسمى الصفات وأكرم الخصال ما نعت بها نبيه صلى الله عليه وسلم .

وإقامة دولة الإيمان ، والتحاكم إلى شرعه في السياسة والإقتصاد ، والحياة العامة ، والحياة مع الأمم وغير ذلك ، مدار تحقيق العبودية لله ، فوجب على الأمة العمل لتحقيق هذا الغرض .

فليست العبودية لله في الصلوات والزكوات والحج والشعائر التعبدية فقط ، إنما العبودية لله في شئون الفرد والجماعة والدولة ، وفي ما يحتاجه المسلم في حياته .

---

(١) في ظلال القرآن .

(٢) سورة النحل آية ٣٦ .

(٣) سورة الإسراء آية ١ .

والإسلام دين كامل ما ترك شأناً يحتاجه الإنسان إلا وبينه ، وعالجه ووضح موقف الإسلام منه ، فعرف المسلم كيف يتعامل مع الموجودات من نعومة أظفاره إلى أن يصل إلى لحده .

وليس ذلك فقط ، بل فتح الإسلام باب الاجتهاد للعلماء والفقهاء ليجدوا حلولا لكل ما يجد من أمور حياتية يحتاجها المسلمون في حياتهم ولم يتعرض لها من سبقهم لاستغناء حياتهم عنها ، ولم يترك الإسلام الاجتهاد هكذا يلج بحره كل غاد ورائح بل وضع له الضوابط والموازين التي تكفل للجماعة المسلمة القيام وفق نواميس الكون التي أرادها الله .

obeikandl.com

ثانياً : الاستجابة للقرآن والإيمان

أمرنا الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم بأخذ كل ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ **وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا** ﴾[1] فالأمر الإلهي في الآية عام يشمل جميع ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم في جميع مجالات الحياة الإنسانية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، دون تبعيض أو استثناء ، بل يجب على الأمة أن تأخذ بكل ما جاء به .

ومن عجب أن نجد بين الحكومات من تقر الأخذ بما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم في شئون الأحوال الشخصية ، وهي ذاتها ترفض ما جاء به من مبادىء هامة وخطيرة في السياسة المالية والاقتصادية ، وفي الحكم والقتال وغير ذلك ، وحتى الأحوال الشخصية لم تسلم عند كثير من الدول ـ التي تدعي الاسلام ـ لم تسلم من التحريف والتغيير والتبديل .

ولم يكتف القرآن بالأمر بأن نأخذ ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم بل قرن طاعة النبي صلى الله عليه وسلم بطاعة الله سبحانه وتعالى فقال الله عز وجل : ﴿ **ومن يطع الرسول فقد أطاع الله** ﴾[2] وكيف تتحقق الطاعة لله ولرسوله إذا لم نتبع الدين الذي شرعه في جميع ما جاء به ، وأن ننزجر ونرتدع عن جميع مانهانا عنه وزجرنا عن فعله .

فقد أمرنا أن نحكم بما أنزل الله فقال عز من قائل : ﴿ **فاحكم بينهم بما أنزل الله** ﴾[3] واعتبر القرآن كل حكم بغير ما أنزل الله هوى وضلالاً ، واتباعاً

---

(١) سورة الحشر آية ٧ .

(٢) سورة النساء آية ٨٠ .

(٣) سورة المائدة آية ٤٨ .

للهـوى فقـال الله سبحـانـه : ﴿ **وإن احكم بينهم بمـا أنـزل الله ولا تتبـع أهواءهم** ﴾[1] وقد جعل الحكم له وحده وربطه ربطاً وثيقاً بعبـادته فقـال : ﴿ **إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه** ﴾[2] فكمال عبادته سبحانه وتعالى مرتبط بكمال الانقيـاد إلى حكمه بمـا يحكم بـه في شئـون النفس وشئـون الحيـاة بكـل جـوانبهـا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية .

أمـا في مجال الـزجر والـردع فقد نهانـا عن الحكم بـالهـوى والـرأي فقـال : ﴿ **فـاحكم بين النـاس بالحق ولا تتبـع الهوى** ﴾[3] فـأي حكم بـالـرأي والـرغبـة الشخصية على خلاف حكم الله ورسوله وهو محض ضلال ، وهو جاهلية جديدة، وقد ذم الله أولئك الذين يحكمون بالهوى وتعجب من حالهم ومن رغبتهم : الحكم بغير ما أنزل الله فقال : ﴿ **أفحكم الجاهلية يبغون** ﴾[4].

فالمفروض أن الجاهلية حقبـة تاريخيـة قد انتهت بمجيء الإسـلام ، وذهبت أحكـامها أدراج الـرياح ، وحـل مكانها التشريـع الربـاني المستمـد من الله العليم الخبير .

أمـا أن يُصرَّ أُناس عـلى الحكم بغير مـا أنزل الله ، وأن يحكمـوا بين النـاس بالقوانـين الوضعيـة ، ذات المرجـع البشري المجبول عـلى حب الذات والمصلحـة الشخصية وعدم الخلو من الغرض، فذلك أمر ما نراه إلا دُبِّر بليل ، ومؤامـرة على الشريعة الإسلامية لا يشترك فيها إلا كل عدو حاقد ، وكل مأفون مـأجور ، أسلم قياد نفسه ومصلحـة أمته وأمـر دينه إلى عـدوه وخصمه ، وأخـذ هو يصـارع شعبه ويغالبه حتى يرغمه على قبول حكمه والتسليم لضلالاته.

---

(١) سورة المائدة آية ٤٩ .

(٢) سورة يوسف آية ٤٠ .

(٣) سورة ص آية ٢٦ .

(٤) سورة المائدة آية ٥٠ .

فالإنسان المخلص لأمته وشعبه ، والقائد المحب لخير بلاده ، يحكمها بما يحقق رغبات أمته ، وبما يتفق مع تطلعاتها وآمالها ، وبما تعتبره أعز من النفس والمال والولد وهو دينها وحكم ربها .

ولعمر الحق إنه لأمر عجيب ومريب أن يدعي هؤلاء الحكام حرصهم على مصلحة أمتهم ، ثم نراهم ينصبون راجمات الصواريخ لقتل أمتهم ، وتمزيق جسدها وطمس معالمها ، والإساءة إلى مقدساتها ، ومسخ تراثها وتشويه حضارتها .

إنها الخيانة للأمة والمؤامرة مع عدوها عليها .

إن بين المسلمين فئة من المنافقين الذين نهلوا من معين المستشرقين ، وأُرضعوا لبان الثقافة الغربية ، التي توهن من شأن الشريعة الإسلامية وتصم المعتصمين بها بالتأخر والرجعية ، وهؤلاء يرون أن الغرب لم ينهض من كبوته إلا بعد أن نفض يده من الدين وأهله ، حيث وقف رجال الكنيسة حجر عثرة في سبيل العلم والتقدم والمدنية ، ويعتقدون أنه لا سبيل لنهوض أمتهم إلا بالعلمانية والانسلاخ من الدين وتركه جانبا أسوة بالحضارة الغربية ، متجاهلين الفوارق الواضحة بين طبيعة الإسلام وطبيعة المسيحية ، فالإسلام يدعو إلى العلم والمعرفة وإقامة الحضارة الإنسانية المتكاملة في جوانب الحياة المتعددة المادية والروحية والعقلية على أساس من توحيد الله تعالى والنظرة السديدة الصائبة إلى الكون والإنسان والحياة بما يحقق السعادة للبشرية كلها .

إن هؤلاء يتسنمون مراكز القيادة في الأمة بهذه العقيدة ويضعون نصب أعينهم الانسلاخ من شريعة الإسلام أو من الدين كله ، ويعتبرون أن إقامة الحدود وتحكيم الشرع وحشية لا تلائم عصر المدنية ، ولا يجرؤون على إعلان ردتهم وكفرهم حتى لا تنقم عليهم الأمة المسلمة التي يحكمونها ، وهم في حاجة إلى أن يتملقوها باسم

الإسلام ، وحين يتشدقون يحتجون بأنهم ما أرادوا تحكيم القوانين الوضعية إلا لمصلحة الأمة حرصا على تقدمها وإزدهارها ، ويبلغ بهم النفاق مبلغه حيث يحلفون كاذبين أنهم ما أرادوا بصنيعهم هذا إلا الاحسان ، وذلك هو ما حكاه القرآن عن المنافقين لأن النفاق هو النفاق في كل عصر ﴿ **وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا** ﴾[1] .

إن مصلحة الأمة المسلمة في أن تُحكم بدينها ، وأن تقاد بقرآنها ، وأن تجاهد لرفع كلمة ربها ، وأن تجتمع لنصرة دينها ، فمن كان حريصا على مصلحتها فليعمل على تحقيق رغبتها ، ومن كان خائناً لها فليكشف القناع عن صليبيته أو شيوعيته أو يهوديته وعمالته .

إن الحكم بما أنزل الله يتعارض مع شهوات المستبدين ورغبات الظالمين ، وكثيرا ما يستولي هؤلاء على أزمة الحكم ، ويقبضون بأيديهم على كل مرفق من المرافق للاستبداد بالأمور كلها ، ويضربون بيد من حديد على الرأي الحر والفكر المستنير ما دام يتعارض مع أهوائهم ومصالحهم ، ويمنعون أهل الحق عن المجاهرة به والصمود في سبيله ، ولذلك يبطشون بهم ، فيزجونهم في غياهب السجون ، ويلحقون بهم الأذى في أموالهم وأعراضهم وأهلهم وأوطانهم .

وتحت وطأة الاضطهاد والظلم تقع فئة من ضعاف الإيمان في شباك الظالمين ، فيستكينون لهم وينصاعون لرغباتهم ويكتمون شريعة الله التي استحفظوا عليها ، وقد يبلغ الضعف بهم مبلغه طمعا في عرض من أعراض الحياة الدنيا فيتملقون الطغيان ، ويمالئون ذوي الشهوات ، ويحرفون الكلم عن مواضعه ، ويصدرون

---

(١) سورة النساء آية ٦١ ـ ٦٢ .

الفتاوي التي تبرر خروج الحكام عن شرع الله وتلتمس لهم المعاذير ، ولذا نهى الله علماء اليهود الذين تهاونوا في تحكيم التوراة تحت تأثير هذا الواقع : ﴿ **إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا . والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** ﴾[1] فأمرهم الله أن لا يخشوا الناس ، ولا يشتروا بفتاويهم عرض الحياة الدنيا .

وهذه البلوى من أخطر ما تواجهه الجماعة المسلمة في مسيرتها المباركة ، إذ يخرج عليها بعض أبنائها ، أو أحد علماء السوء يباركون للحاكم بطشه وظلمه ، ويبررون له حكمه بغير ما أنزل الله ، ويأخذون على عاتقهم رمي المؤمنين بأقبح الألقاب وأسوأ العبارات ، وأبشع الصفات .

إن الوقوف عند حدود الشريعة جهاد لهوى النفس لايصبر عليه إلا أهل الإيمان ، وللنفس أهواؤها المختلفة ، وشريعة الإسلام تكبح جماح الأهواء والنزعات لتستقيم النفس، ويتحقق الخير للفرد والإنسانية، وأهواء الحكم أشد تسلطا على النفس وبعدا عن الحق ، ومهما التمس الناس المعاذير لتبرير الخروج عن شريعة الله وتحكيم القوانين الوضعية ، فباعث ذلك الهوى ، وقد جرت سنة الله على اختلاف الناس في اتجاهاتهم ومذاهب حياتهم أن سلطان الحق هو الذي يجمعهم على كلمة سواء، وليس سلطان الهوى وترضية النفوس ، ولذا حذر الله تعالى رسوله من ذلك حتى لا يفتن عن شيء من حكم الله : ﴿**فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا**﴾[2].

عندما تمرض النفس وتقع أسيرة الهوى والشهوة ، تنظر بمنظار الهوى ، وهوى

---

(١) سورة المائدة آية ٤٤ .

(٢) سورة المائدة آية ٤٨ .

النفس لا يأتي عن طريق الحق والحكم بما أنزل الله لأن الهوى غي وظلم ، إلاّ من كان هواه تبعاً لما جاء به الرسول ﷺ، وأبان القرآن أسباب كفر أهل الجاهلية وأرجع ذلك إلى كبرهم وكراهيتهم للحق ﴿ **بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون ، ولو اتبع الحق أهوآءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون**﴾[1] وطواغيت الأرض الذين يتحكمون في عباد الله بأهوائهم ومطامعهم وتعسفهم واستبدادهم يكرهون الإسلام لأنه الدين الحق ويتمردون على حكمه لأنه لا يقضي إلا بالعدل وهم متجبرون ظالمون .

فالحكم إما أن يكون لله ، وإما أن يكون للهوى والضلال والجاهلية الجهلاء .

والناس في الحياة إما أن يتبعوا ما أنزل الله ويعترفوا لله بالحكم والتشريع ، وهذا هو الإسلام ، وإما أن يتبعوا دونه أولياء من الشرق أو الغرب ، فهذا هو الشرك والضلال المبين .

إن أمر الحياة البشرية لا يستقيم إلا بالتوافق مع النواميس الربانية ، وقيادة هذه البشرية وفق أحكام وتعاليم خالق هذه النواميس وذلك بتحكيم شرعه وقيادة خلقه بما شرعه على ألسنة رسله وأنزله في كتبه ، عند ذلك فقط تستقيم الحياة البشرية ، وتنعم الإنسانية بربيع دافء جميل ، تنام فيه ملء عينيها لا تخاف الذرة ولا الدمار ولا الهلاك .

---

(١) سورة المؤمنون آية ٧٠ .

ثالثاً : الخلافة في الأرض

من الأسس والمبادىء التي تدعونا إلى القول : « بوجوب التحاكم إلى شرع الله » الخلافة البشرية في الأرض .

إن الله سبحانه إنما خلق الإنسان ليعبده في الأرض ، ويقيم شرعه في الناس ، وليكون خليفته على هذا الكوكب ، قال الله تعالى : ﴿ **وإذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الأرض خليفة** ﴾[1] .

قال القرطبي[2] رحمه الله : « هذه الآية أصل في نصب إمام وخليفة يُسمع له ويطاع ، لتجتمع به الكلمة ، وتنفذ به أحكام الخليفة ، ولا خلاف في وجوب ذلك بين الأمة ، ولا بين الأئمة ، ودليلنا قول الله تعالى : ﴿ **إني جاعل في الأرض خليفة** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **يا داود إنّا جعلناك خليفة في الأرض** ﴾[3] وقوله تعالى : ﴿ **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض** ﴾[4] أي يجعل منهم خلفاء ، وأجمعت الصحابة على تقديم الصديق بعد اختلاف وقع بين المهاجرين والأنصار في سقيفة بني ساعدة في التعيين ، حتى قالت الأنصار : منا أمير ومنكم أمير ، فدفعهم أبو بكر وعمر والمهاجرون عن ذلك ، وقالوا لهم : إن العرب **لا تدين إلا لهذا الحي من قريش ، ورووا لهم الخبر في ذلك فرجعوا وأطاعوا قريشاً** ، فلو كان فرض الإمامة غير واجب لا في قريش ولا في غيرهم لما ساغت هذه المناظرة والمحاورة عليها » أ . هـ .

---

(١) سورة البقرة آية ٣٠ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ج١ ص ٢٦٤ .

(٣) سورة ص آية ٢٦ .

(٤) سورة النور آية ٥٥ .

فجعل الإنسان خليفة لله في الأرض عدا ما فيه من تكريم له إنما كان لتحقيق الخلافة في الأرض ، وكيف تتحقق الخلافة لسلطان أو غيره ، بغير تحقيق مراده وما يأمر به ، فالعقل والنقل على أن خلافة الإنسان في الأرض إنما كانت لإقامة شرع الله الذي استخلف هذا الإنسان في ملكه ، فمن أقام شرع الله وحكم به كان خليفة لله في الأرض ، ومن نكل عن شرعه وعصى أمره كان خليفة لمن أطاعهم وعصى الله بهم ، فهو ومن أضله في النار .

وتحقيق الخلافة عن الله في الأرض تكون : بأن يخلص الإنسان عبوديته لله ، ويتخلص من العبودية لغيره ، وأن يحقق منهج الله وحده ويرفض الاعتراف بشرعية منهج غيره ، وإن يُحكم شريعة الله وحدها في حياته كلها وينكر تحكيم شريعة سواها ، وأن يعيش بالقيم والأخلاق التي قررها الله له ويسقط القيم والأخلاق المدعاة . ثم بأن يتعرف بعد ذلك كله إلى النواميس الكونية التي أودعها الله هذا الكون المادي ، ويستخدمها في ترقية الحياة ، وفي استنباط خامات الأرض وأرزاقها وأقواتها التي أودعها الله إياها ، وجعل تلك النواميس الكونية أختامها ، ومنح الإنسان القدرة على فض هذه الأختام بالقدر الذي يلزم له في الخلافة . . أي حين ينهض بالخلافة في الأرض على عهد الله وشرطه ، ويصبح وهو يفجر ينابيع الرزق ، ويصنع المادة الخامة ، ويقيم الصناعات المتنوعة ، ويستخدم ما تتيحه له كل الخبرات الفنية التي حصل عليها الإنسان في تاريخه كله . . حين يصبح وهو يصنع هذا كله « ربانيا » يقوم بالخلافة عن الله على هذا النحو ـ عبادة لله ، يكون قد حقق معنى الخلافة في الأرض .

يقول الفخر الرازي رحمه الله : « إنما سماه الله خليفة لأنه يخلف الله في الحكم بين المكلفين من خلقه ، وهو المروي عن ابن مسعود وابن عباس والسدي ، وهذا

الرأي متأكد بقوله تعالى : ﴿ إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ﴾[1] .

ونقل ابن كثير في تفسيره عن ابن جرير رحمهما الله في قوله تعالى : ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ حتى يخلفني في الحكم بالعدل بين خلقي ، وإن ذلك الخليفة هو آدم ومن قام مقامه في طاعة الله ، والحكم بالعدل بين خلقه ، أما الإفساد وسفك الدماء بغير حقها فمن غير خلفائه »[2] أ . هـ .

وعلى ذلك فإن الإنسان خليفة لله في الأرض يقيم شريعته ، وينفذ أوامره ، ويجتنب نواهيه ، ويعمل بما بينه رسوله ، وذلك في نفسه وأهله ومن كان تحت ولايته ، أو كان تحت سلطانه وأمرته .

يتحدث الشيخ عبدالرحمن حبنكة عن موضوع خلافة الإنسان في الأرض فيقول : «على أن الفكرة بحد ذاتها بدعة حديثة من بدع الأفكاو، لم يقل بها أحد من السلف، وليس لها سند من نص شرعي، جُلَّ ما تعتمد عليه تأويل فاسد، ثم شاعت واستهوت كثيراً من الناس، وتلامعت ألوانها في نظر الكثيرين من الدعاة المخلصين في الدعوة إلى الإسلام، ورأوا أنهم يستحثون بها الضمير الإنساني لالتزام منهج الله وتطبيق أحكامه»[3].

وما نقلناه عن ابن جرير والرازي وابن كثير يقوى ما ذهبنا إليه ، والله أعلم .

---

(١) تفسير الرازي ج١ ص ١٨١ والآية من سورة ص آية ٢٦ .
(٢) تفسير ابن كثير ج١ ص ٧٠ .
(٣) بصائر المسلم المعاصر ص ١٣٢ .

رابعاً : الدين الشامل

يلهث كثير من المفكرين المدعين انتسابهم إلى الإسلام وراء أسيادهم من المستشرقين، ليلتقطوا منهم فتات أفكارهم ، وسمومهم وغشهم للأمة الإسلامية فيأخذون منهم هذا الفتات من الأفكار المسمومة يقدمونها للمسلمين على أنها أفكار موضوعية ، ودراسة أدبية ، وعلوم حضارية استفادوها من أساطين العلم والمعرفة في بلاد الغرب .

وهؤلاء المستشرقون لا يخفى على عاقل أنهم يتحركون بدافع الحقد الصليبي على العالم الإسلامي من جهة ، ومن جهة أخرى بدافع السيطرة على هذا العالم عن طريق تفتيته بواسطة بث الأفكار الدنيئة وبلبلة عقول المسلمين .

والمخلص من المستشرقين الذي يحرص على الموضوعية ، ويحاول أن يتجرد ولو قليلا من الهوى والغرض يقيس الإسلام عند دراسته على النصرانية فيقول بتنحية الإسلام كدين عن الحكم والسياسة ، فتخرج دراساته وقد امتلأت بالأغاليط والأكاذيب ، من حيث يشعر أو لا يشعر ، وذلك للمفارقة الكبيرة بين النصرانية والإسلام .

إن الله عندما ارتضى لنا الإسلام ديناً فقال في محكم كتابه : ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام** ﴾[1] جعل هذا الإسلام دينا شاملاً كاملاً ، لم يترك أمراً أو شأناً يحتاجه المسلمون في حياتهم منذ أن بُعث نبيهم عليه الصلاة والسلام ، إلى أن يأخذ الله الأرض ومن عليها إلا بينه لهم ، وفصله لهم ، وتركهم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها ، لا يضل فيها مبصر سوي .

والإنسان منذ ولادته إلى أن يموت ، وهو فرد في جماعة ، أو أسرة ، أو قبيلة

---

(١) سورة آل عمران آية ١٩ .

أو دولة لم يترك له حالة إلا ووضحها له ، وبين له الخير والصواب فيها ، وتركه على الهدى والبيان فيها ، وترك أشياء رحمة بنا غير نسيان لها وأمرنا أن لا نبحث عنها .

والفرد في المجتمع كائناً ما كانت وظيفته ودرجته ، أو عمله وعلمه ، لم يترك سدى ، بل وضح الله له كل ما يعترضه في حياته ، وأعطاه مفتاح الحلول لكل المعضلات والمشكلات ، ووضح الطريق الذي يجب أن يسلكه ، والموقف الذي يجب أن يتخذه حيال ذلك كله .

فكان الإسلام رجالاً تتمثله تمشي به في الأرض ، وكان المسلم عنواناً لهذا الإسلام ، فكان كلاهما حياة للآخر .

فالنبي صلى الله عليه وسلم عاش في مجتمع وتزوج فيه ، ورزق أطفالا وأسرة كبيرة ، وكوّن مجتمعا مسلما أخذ ينمو ويكبر حتى شكل جيشاً ودولة دانت لها دول كثيرة كانت سمع الدنيا وبصرها .

وعرف المسلم من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم الاسوة الحسنة ، والقدوة الصالحة في جميع مناحي الحياة ، وذلك عكس الديانات الأخرى .

فالمسيح عليه السلام لم يتزوج ولم يعرف الأسرة ، ولم تتهيأ له الفرصة لينشىء دولة ، ولم يفتح بلادا ، ولا كوّن جيشاً ولا دخل حرباً ، ولا سنّ لكل ذلك تشريعاً ، فكانت دعوته روحية نظيفة تدعو إلى الإيمان والسمو الروحي والتسامح البشري . والارتقاء بالروح .

ولذلك لايعرف النصارى حياة المسيح مع زوجته لأنه لم يتزوج ، ولا يعرفون معاملته لأولاده لأنه لا أولاد له ، ولم يعرفوا أسس تكوين الدولة وإعداد الجيوش ، وإرسال كتائب الجهاد لأن ذلك كله لم يحدث عندهم[1] .

(١) النصرانية امتداد لليهودية في أحكامها التشريعية قال الله تعالى : ﴿ ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم ﴾ .

ثم وجد المفكرون النصارى أنفسهم في معركة دامية مع الكنيسة ذهب الكثيرون ضحيتها .

فالكنيسة تريد أن يسود الجهل والظلام الفكري ، وتعمل لنشر الجهل والضلال حتى يتسنى لها تكثير اقطاعياتها من الأرض ، وحتى تزيد ثرواتها من المال ، فكانت تبيع صكوك الغفران تمنح بموجبها الجنة لمن يدفع أكثر .

وظلت الكنيسة جاثمة على صدور النصارى تذيقهم الويل والثبور حتى وجدوا متنفسا في الثورة عليها والتخلص منها .

ومن هذاالموقف انطلق المفكرون النصارى في عدائهم للكنيسة ، ومن فقدان الأسوة والقدوة أخذوا يشرعون من عند أنفسهم للناس ما لم ينزل به الله من سلطان .

ولكن الأمر جد مختلف عند المسلمين .

فما من مسألة إلا ولها الحل في الإسلام ، أو يقدم لها الاجتهاد حلاً .

ولم يقف الإسلام في يوم ما حجر عثرة في طريق تقدم المسلمين وازدهار حضارتهم ، بل يشهد أعداء الإسلام له بأنه الطريق الذي وصل بالحضارة إلى أوجها ، وهو السلم الذي ارتقى عليه أجدادنا إلى معارج الحضارة ، فلما كسرنا السلم هبطنا إلى أرزل العمر وأسوأ الحال .

وما قلناه عن النصرانية نقوله في اليهودية ، ونقوله في البوذية ، والهندوكية ، والزرادشتية ، وجميع المبادىء الأخرى ، فهي لا تصلح أن تكون للإنسان حياة وللبشرية منهاجاً وتشريعاً .

إن جوهر الإسلام يختلف عن جميع الديانات ، إنه الدين الكامل الذي أمتحن الله البشرية به ، والله لا يظلم أحدا ، فبين الإسلام ووضح معالمه ، وفصل

أحكامه ، ثم سأل الناس أن يلتزموه وهو واضح معلوم ، حتى لا تكون لهم حجة على الله .

فالإسلام فيه التشريعات الأساسية للحياة كلها من أدنى أمورها إلى أعظم شئونها .

ولذا أوجب الله الحكم به ، وحرّم العدول عنه ، وصار واجباً على المسلمين **العمل لإحياء مبادئه ، وسن تشريعاته ، وإقامة أحكامه .**

obeikandl.com

خامساً : رد التنازع إلى الشريعة

أمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين برد التنازع والخلاف إلى الشريعة الإسلامية ، ليصار الحكم وفق تعاليمها ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ **فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا** ﴾[1] وقد جعل الله سبحانه من الظواهر السلوكية للإيمان الصحيح رد التنازع إلى الله والرسول بقوله في الآية السابقة : ﴿ **إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر** ﴾ .

قال ابن كثير رحمه الله : « فما حكم به الكتاب والسنة وشهدا له بالصحة فهو الحق ، وماذا بعد الحق إلا الضلال » وقال : « أي ردوا الخصومات والجهالات إلى كتاب الله وسنة رسوله فتحاكموا إليهما فيما شجر بينكم ، فدل على أن من لم يتحاكم في محل النزاع إلى الكتاب والسنة ولايرجع إليهما في ذلك فليس مؤمنا بالله[2] ولا باليوم الآخر لقوله تعالى : ﴿ **إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر** ﴾[3] .

وقد ذهب القرطبي في تفسيره عند هذه الآية إلى القول بوجوب رد الحكم إلى كتاب الله وسنة رسوله ، ويكون ذلك بالسؤال في حياته ، أو بالنظر في سنته بعد وفاته ، ومن لم ير هذا اختل إيمانه »[4] .

---

(١) سورة النساء آية ٥٩ .

*(٢) النص لا يدل على هذه الدلالة لأن مثل هذا الاستعمال لا يفيد ذلك وقد كثر في القرآن دون أن يحمل هذه الدلالة مثل : [الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر].
بل يدل على أن الإيمان يدفع إلى هذا التطبيق فالقرآن يستحث على التطبيق بدافع الإيمان ولا يجعل التطبيق شرطاً لصحة الإيمان .

(٣) تفسير ابن كثير ج١ ص ٥١٨ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج٥ ص ٢٦١ .

أما الفخر الرازي فقد قال : « بنص الآية على اعتبار القياس حجة لقوله تعالى : ﴿ **فإن تنازعتم في شيء** ﴾ فذهب إلى أن التنازع لا يكون أصلا إلا فيما لم يرد فيه نص ، لأن ما ورد فيه النص فإن حكمه الطاعة لله ورسوله لقوله تعالى في أول الآية : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم** ﴾[1] وجعل الرازي رحمه الله الرد في القياس إلى واقعة بيّن الله حكمها ، ولابد وأن يكون المراد فردوها إلى واقعة تشبهها ، **وأن من لم يعمل ذلك لا يكون مطيعاً لله وللرسول ، ومن لم يطع الله والرسول لا يكون مؤمناً** »[2] [3].

والمفهوم من كلام الرازي أن التنازع والخلاف في أي مسألة كانت لابد من رده إلى أصل شرعي حتى لايكون الحكم للهوى والطغيان ، ذلك أن الله ما أرسل الرسل عليهم السلام إلا ليطاعوا في تشريعهم لقوله تعالى : ﴿ **وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله** ﴾[4] ، فالناس لايؤمنون حتى يحكموا منهج الله ممثلا في كتابه الكريم وفي سنة نبيه عليه السلام ، وهما المصدران الأساسيان للتشريع الإسلامي ، وما جدَّ من مسائل فإنما يُحكم بهما بالرد إلى هذين الأصلين بالقياس على واقعة حكم فيها شبيهة للواقعة الجديدة وبإجماع أهل العلم على صدق هذا الحكم فيها وأنه مطابق لمراد الشريعة الإسلامية .

فإن المشكلات والقضايا التي يتعرض لها المجتمع الإسلامي ولم يرد فيها نص صريح ، وكانت مما تختلف في تقديره العقول والأراء والافهام ، فإن الله أمرنا برد هذه القضايا والمشكلات الى الله والى الرسول وذلك بردها الى النصوص التي

---

(١) سورة النساء آية ٥٩ .

(٢) تفسير الرازي ج ٥ ص ١٥٦ .

* (٣) **كلام الرازي هذا غير مسلم به ، إلاّ إذا كان مراده أن من لم يطع قد رفض الطاعة لا أنه أسلم وعصى .**

(٤) سورة النساء آية ٦٤ .

تنطبق عليها ضمناً، فإن لم توجد النصوص فإنما يكون الرد الى المباديء الكلية العامة في الشريعة الإسلامية ، ويكون الرد الى القضايا المشابهة والتي سبق أن حكم الله فيها ورسوله، أما الرد الى المناهج الارضية والمباديء البشرية فهذا مما لا يجيزه الله ولا يقبله من بشر أبداً.

وقد نفى الله الإيمان عن الذين لا يتحاكمون إلى الله وإلى رسوله فقال سبحانه وتعالى : ﴿ **فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما** ﴾[1] ،

والمشاجرة هي المنازعة، وذلك لتداخل كلام الخصوم بعضهم في بعض عند المنازعة، فالحكم في قضايا المنازعة والمخاصمة يجب ان يستقيم مع شريعة الله سبحانه وتعالى، لا على القوانين الوضعية التي يحكم بها في محاكمنا اليوم، والآية صريحة في ذلك

قال الرازي رحمه الله : « في الآية قسم من الله تعالى على أنهم لا يصيرون موصوفين بصفة الإيمان إلا عند حصول شرائط :

أولها : قوله ﴿ **حتى يحكموك فيما شجر بينهم** ﴾ وهذا يدل على ان من لم يرض بحكم الرسول لا يكون مؤمناً .

ثانيها : قوله : ﴿ **ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت** ﴾ قال الزجاج : لا تضيق صدورهم من أقضيتك (أي حكم الرسول) وأنه لابد من حصول الرضا بالحكم في القلب، وان يحصل الجزم واليقين في القلب بأن الذي يحكم به الرسول صلى الله عليه وسلم هو الحق والصدق

ثالثها : قوله تعالى : ﴿ **ويسلموا تسليما** ﴾ فبين تعالى أنه كما لابد في الإيمان

---

(١) سورة النساء آية ٦٥ .

من حصول ذلك اليقين في القلب، فلابد أيضاً من التسليم معه في الظاهر، فقوله : ﴿ **ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت** ﴾ المراد به الانقياد في الباطن، وقوله تعالى : ﴿ **ويسلموا تسليما** ﴾ المراد منه الانقياد في الظاهر »[1] أ. هـ .

والآية نزلت في الزبير بن العوام رضي الله عنه عندما أختلف مع صحابي من الأنصار حول سقي بستان فقال النبي صلى الله عليه وسلم للزبير : « اسقِ يا زبير ثم أرسل الماء الى أرض جارك » فغضب الأنصاري فقال : يا رسول الله : أن كان ابن عمتك ؟ (أي أتحابيه لقرابته منك)، فتلون وجه[2] رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال للزبير : « يازبير أسق . ثم أحبس الماء حتى يبلغ الجدر » فرد الرسول صلى الله عليه وسلم الرجل الى مُر الحكم بالحق، لأن من كانت أرضه أقرب الى فم الوادي فهو أولى بأول الماء، وحقه تمام السقي، فالآية إنما نزلت لوقوع المخاصمة بين الصحابة، فرد الله الحكم الى رسوله، ورد المسلمين الى التسليم لحكم الرسول صلى الله عليه وسلم ظاهراً وباطناً.

فالآية نص صريح برد جميع الخصومات والمشاجرات بين المسلمين الى قوانين الله وشرعه، ورد كل القوانين التي تخالفه .

وقد وصف الله سبحانه وتعالى الذين لا يرجعون في منازعاتهم ومشاكلهم الى الله والى رسوله والى شرعه بأنهم :

١ ــ غير صادقين في إيمانهم، بل الكذب واضح فاضح لهم : ﴿ **ألم تَرَ الى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أُنزل اليك، وما أُنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت وقد أُمروا ان يكفروا به** ﴾[3] فقال في وصف إيمانهم ﴿ **الذين يزعمون** ﴾ والزعم كما قال علماء العربية يستعمل في القول

---

(١) تفسير الرازي ج ٥ ص ١٧٠ .

(٢) تغير وجه النبي صلى الله عليه وسلم غضبا لحرمة النبوة وقبح كلام هذا الصحابي .

(٣) سورة النساء آية ٦٠ .

الكذب والذي يُشك في صحته، والذي لا يتحقق .

٢ ــ وصفهم بأنهم يريدون ﴿ **ان يتحاكموا الى الطاغوت** ﴾ والطاغوت كما عرفنا هو صيغة من الطغيان وتجاوز الحد، وأنه على الراجح شيطان، أو حاكم بغير ما أنزل الله، والصفة الشاملة للطاغوت عدا مجاوزته الحد أنه ينازع الله سلطانه في خلقه، فطغى حده، وزاد عن أمره، والذين يلجأون الى الطاغوت أولئك أكفر الخلق وذلك لقوله تعالى : ﴿ **والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ (١) .

٣ ــ وصفهم الله بأنهم من الضالين الذين أضلتهم الشياطين، ومن الضالعين في الضلال البعيد العظيم، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ **يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت وقد أُمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يُضلهم ضلالاً بعيد** ﴾ (٢) والضال كما هو معلوم من الدين بالضرورة أنه من أصحاب الجحيم .

٤ ــ وصفهم الله سبحانه وتعالى بالنفاق فقال : ﴿ **وإذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا** ﴾ (٣) فالذين يرفضون التحاكم الى قوانين الشريعة الإسلامية، ويرفضون الانصياع لحدود الله وأحكامه فهم من المنافقين (٤) الذين قال الله فيهم : ﴿ **إن المنافقين في**

---

(١) سورة البقرة آية ٢٥٦ .

(٢) سورة النساء آية ٦٠ .

(٣) سورة النساء آية ٦١ .

*(٤) هذا إذا كانوا في الظاهر معلنين إسلامهم ويريدون مع ذلك رفض الانصياع إلى حكم الله وإيثار حكم الطاغوت فالآية تتحدث عن واقعة ولا تعطي قراراً عاماً .

الدرك الأسفل من النار ﴾[1] وقد دللنا بالآية على نفاقهم، ودللنا بالآية على دخولهم درك النار وأسفلها .

لقد كان القتل جزاء لمن رفض حكم الرسول صلى الله عليه وسلم، ولذلك جاء في سبب نزول هذه الآية كما قال كثير من المفسرين : « أنه نازع رجل من المنافقين رجلاً من اليهود فقال اليهودي : بيني وبينك أبو القاسم، وقال المنافق بيني وبينك كعب بن الأشرف، والسبب في ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يقضي بالحق ولا يلتفت الى الرشوة، وكعب بن الأشرف كان شديد الرغبة في الرشوة، واليهودي كان محقاً، والمنافق كان مبطلاً، فلهذا المعنى كان اليهودي يريد التحاكم الى الرسول، والمنافق كان يريد كعب بن الأشرف، ثم أصر اليهودي على قوله، فذهبا إليه صلى الله عليه وسلم، فحكم الرسول عليه الصلاة والسلام لليهودي على المنافق، فقال المنافق لا أرضى انطلق بنا إلى أبي بكر، فحكم أبو بكر رضي الله عنه لليهودي فلم يرض المنافق، وقال المنافق : بيني وبينك عمر، فصارا إلى عمر فأخبره اليهودي أن الرسول عليه الصلاة والسلام وأبا بكر حكما على المنافق فلم يرض بحكمهما فقال للمنافق : أهكذا فقال نعم، قال اصبرا إن لي حاجة أدخل فأقضيها وأخرج إليكما فدخل فأخذ سيفه ثم خرج إليهما فضرب به المنافق حتى برد[2] وهرب اليهودي، فجاء أهل المنافق فشكوا عمر الى النبي صلى الله عليه وسلم فسأل عمر عن قصته، فقال عمر : إنه رد حكمك يا رسول الله . فجاء جبريل عليه السلام في الحال وقال : إنه الفاروق فرق بين الحق والباطل، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعمر : « أنت الفاروق » .

---

(١) سورة النساء آية ١٤٥ .

(٢) حتى برد : أي مات .

لقد قضى عمر الفاروق بقتل من رد حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأنه حكم النبي المعصوم عن الخطأ، والمأمور بطاعته من الله .

فكيف بالمسلمين اليوم قد هجروا شرع ربهم واستبدلوه بالقوانين الوضعية المستوردة من فرنسا ومن إنكلترا، ومن هنا أو هناك .

كيف بالمسلمين اليوم وقد عصوا الله ورسوله، ورفضوا أحكامه وقوانينه، وقد تجرأ كثير منهم على اتهامها بالقصور وعدم الصلاحية .

﴿ ويريد الشيطان أن يُضلَّهم ضلالاً بعيدا ﴾ (١) .

---

(١) سورة النساء آية ٦٠ .

obeikandl.com

سادساً : توقّي عقوبة الله المعجلة بإيقاع البأس بين أحزاب الأمة .

إن الحكم بغير ما أنزل الله يوجب استنزال غضبه ومقته على الخلق .

يقول ابن تيمية مبيناً الآثار المترتبة على تحكيم القوانين الوضعية : « اذا حكم ولاة الأمر بغير ما أنزل الله وقع بأسهم بينهم » قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ما حكم قوم بغير ما أنزل الله إلا وقع بأسهم بينهم » وهذا من أعظم أسباب تغير الدول كما جرى مثل هذا مرة بعد مرة في زماننا ، ومن أراد الله سعادته جعله يعتبر بما أصاب غيره ، فيسلك مسلك من أيده الله ونصره ، ويجتنب مسلك من خذله الله وأهانه ، فإن الله يقول في كتابه : ﴿ **ولَيَنصرُنَّ الله من ينصره إن الله لقوي عزيز ، الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور** ﴾[1] فقد وعد الله بنصر من ينصره ، ونصره هو نصر كتابه ودينه ورسوله ، لا نصر من يحكم بغير ما أنزل الله ، ويتكلم بما لا يعلم »[2] .

والواقع يشهد بأن الحكام الذين **اجترأوا على الله** فغيروا شرعه، وحكموا الخلق بغير هدى الله، حلت عليهم المصائب وتوالت بهم الهزائم، **وقلَّ خير الأرض في بلادهم ، وارتفعت الأسعار ، وشاعت الفاحشة ، وانتشرت الرزيلة ، وعمت البلوى ، وألقيت بينهم العداوة والبغضاء ، وكان بأسهم بينهم شديداً .**

كل ذلك جزاء حكمهم بغير ما أنزل الله، فالعودة الى الشريعة الربانية يجنب البلاد والعباد غضب الله سبحانه وتعالى، وينشر الخير، ويمنع البلاء .

---

(١) سورة الحج آية ٤٠ .

(٢) الفتاوي لابن تيمية : ٣٥ / ٣٨٨ نقلا عن الشريعة الإلهية لا القوانين الجاهلية .

سابعاً : الله أعلم وأحكم

لو سألتهم من خلق الإنسان ؟ سيقولون الله !

ولو سألتهم هل يعلم الله طبيعة هذا الإنسان وتركيبته ؟ سيقولون نعم .

أيعلم الله ما توسوس به نفس هذا الإنسان ؟

أيعلم الله ما هو الخير لهذا الإنسان ؟

سيقولون نعم !

إنهم يقرّون بخلق الله للإنسان وقدرته سبحانه وتعالى، ولا ينكرون علمه بهذا الإنسان وما يحيط به من كائنات، ويدركون أن الله يعلم ما في نفس هذا الإنسان ،وما يدور حوله، ويعلم سبحانه كذلك أين خير هذا الإنسان، وأين نفعه وسعادته .[1]

ولكن المعاندين والمكابرين يرفضون أن يسير هذا الإنسان على شرع الله، وعلى نهجه الذي ارتضاه لخلقه .

إن الله خالق كل شيء، والإنسان من خلقه سبحانه وتعالى، والله عليم بكل شيء، لا يعزب عن علمه شيء في الارض ولا في السماء، قال الله تعالى : ﴿ **وما يعزب عن ربك مثقال ذرة في الارض ولا في السماء** ﴾[2] فهو سبحانه خالق الاشياء كلها بما فيها الإنسان ، وهو بالتالي أعلم بما يصلح لهذا الإنسان ، وأعلم بالتشريع الذي يضمن له السعادة في الدنيا والآخرة .

إن الله كلّف الإنسان أن يستقيم على شرعه ، وأن يلتزم بدينه حتى

---

(١) سورة يونس آية ١٠ .

*(٢) إن الذين يرفضون الحكم بما أنزل الله من المعاصرين معظمهم ملاحدة لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولو نافقوا بألسنتهم .

ينال سعادة الدنيا والآخرة، ولكن البشر الذين يشرعون للناس يزعمون كذباً أنهم يريدون لهم السعادة، وعلى فرض صدق ما يقولون، فإن السعادة التي يريدون تحقيقها لا تتعدى الحياة الدنيا ، أما الله سبحانه فإنه يحب لعباده سعادة الدنيا وحسن ثواب الآخرة فيما ارتضى لهم من حكم واصطفى لهم من دين .

إن أرباب الجاهلية الحديثة شأنهم في دعاويهم الباطلة كأصحابهم من أرباب الجاهلية القديمة .

إن طواغيت قريش كانوا يقرون لله بالربوبية والخلق : ﴿ **لئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم** ﴾[1] فكانوا يقرون لله بالخلق والربوبية ، فإذا طلب منهم النبي صلى الله عليه وسلم توحيد الله في العبادة والقربى أخذتهم العزة بتقليد الآباء ، وتكريم الأصنام فقالوا : إنما نعبدها لتقربنا إلى الله زلفى .

وهكذا في عصرنا الحاضر يقرون لله بالخلق والإيجاد ، ويقرون له بعلم ما خفى وما ظهر، ولكنهم ينكرون أن يكون أعلم بما يصلح للإنسان من تشريع ، وبما يحقق له السعادتين الدنيوية والأبدية ، فكأن عيونهم وقلوبهم قد عميت عن إبصار الحقيقة الواضحة ، فجعلوا المخلوق المحدود التفكير والتجربة أعلم بما يصلح لشئون البشر من ربهم وخالقهم وعالم حالهم .

* هذه الفكرة لا يصرح بها المنافقون ولكن يتحايلون بدعاوي : أن الدين الحق لا يلزم بأحكام معينة فقهية وإنما يبتغي المصلحة لهم . ونحو ذلك من دعاوي .

---

(١) سورة الزخرف آية ٩ .

ثم هل يكون لله غرض عند أحد من البشر يحرص سبحانه وتعالى أن يحققه بتشريعه ،

إنه رب كل البشر ، وبالتالي فلا غرض له عند مخلوق ، وهو سبحانه المستغني عن كل المخلوقات ، والمخلوقات كلها مفتقرة إليه .

فتشريع الله يخلو من الهوى ، ويخلو من المصلحة ، ويخلو من الغرض ، إنه **تشريع رباني ، لا قانون يدفع إلى اتباعه الهوى والغرض الشخصي والمصلحة الخاصة.**

« لقد مرت أربعة عشر قرناً منذ نزل هذا التشريع ، ومرت بالبشرية في أقطار الأرض تجارب شتى ، وتفلسف الناس وتعلموا ، ودرسوا في العلوم السياسية ما درسوا ، فإذا الخلاصة التي انتهوا إليها من هذا العلم كله : أن كل تشريع أرضي هو تعبير عن « الطبقة » التي تملك وتحكم ، وأنه يمثل مصالحها هي على حساب بقية الطبقات . فالإقطاع مرة يحكم ، فيشرع لحساب طبقة الإقطاعيين ولحماية مصالحهم على حساب بقية « الشعب » . ورأس المال مرة يحكم ، فيشرع لحساب طبقة الرأسماليين ولحماية مصالحهم على حساب العمال . ودكتاتورية البروليتاريا مرة تحكم ، فتشرع لحساب طبقة العمال (نظرياً على الأقل) على حساب بقية الآدميين . . ولم يحدث غير ذلك في التاريخ .

وهذا هو الذي قرره الله في كتابه ، من أن كل شرع غير شرع الله « هوى » يميل مع أصحابه حيث يميلون .

ثم . . لقد مرت أربعة عشر قرناً منذ نزل هذا التشريع ، ومرت بالبشرية في أقطار الأرض تجارب شتى ، فإذا هذه التجارب ذاتها تثبت أن كل ما انحرف به الناس عن شريعة الله قد سبب لهم شقوة مريرة لا تكاد تطاق ، وهدد أمنهم

وراحتهم ، ومزقهم شيعاً ، وأذاق بعضهم بأس بعض ، فضلا عن الشقاء العالمي الشامل الذي أنتج في التاريخ المعاصر حربين متتاليتين في ربع قرن ، والثالثة على الأبواب تهدد بأفظع دمار عرفه التاريخ . وفضلا عن تفتت الأسرة وتحلل الأخلاق وتمزق أعصاب الفرد بين شتى الإتجاهات ، مما تشهد به أمراض الجنون والاضطرابات النفسية والعصبية وضغط الدم وحوادث الانتحار التي شهدت منها البشرية في هذا الجيل ما لم تشهده في أجيال »[1] .

---

(١) هل نحن مسلمون لمحمد قطب ص ٣١ .

obeikandl.com

ثامناً : الانقياد الجبري والانقياد الاختياري

الانقياد الجبري لله في الكائنات يقتضي انقياد الناس لدينه ، انقياداً اختيارياً حتى يتم التناسق بين الخلائق في الكون كله ، فكائنات الله في السماء من شمس وقمر وما أودعه الله في قوى العالم السماوي تسير على سنن الله المحكمة ذلك لأنها مطيعة بالجبر لأمر الله ومسخرات لمخلوقات الله المخيرة، قال الله تعالى : ﴿ **والشمس والقمر مسخرات بأمره** ﴾[1] وقال سبحانه وتعالى : ﴿ **وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار** ﴾[2] .

وكذلك الأرض وما عليها تسير على سنن الله المحكمة ، قال الله تعالى : ﴿ **الذي جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلاً** ﴾[3] وقال سبحانه وتعالى : ﴿ **هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور** ﴾[4]

وكذلك الإنسان ـ باستثناء أعماله الاختيارية ـ يخضع لله خضوعاً جبرياً في جهازه العصبي وأفعاله الاضطرارية بالقيام بوظائفه العضوية قياماً ينطق بالعبودية لله .

فلا العالم العلوي من ملائكة وأجرام وكواكب ومالا يعلمه إلا الله يخرج عن سنة الله في إرادته الكونية .

---

(١) سورة الأعراف آية ٥٤ .

(٢) سورة إبراهيم آية ٣٣ .

(٣) سورة طه آية ٥٣ .

(٤) سورة الملك آية ٦٧ .

ولا العالم الأرضي بما فيه من إنسان وحيوان ومخلوقات مما لا يعلمها إلا الله يخرج عن سنة الله في إرادته الكونية كذلك .

فكل المخلوقات تسير وفق السنن الربانية في هذا الكون ﴿ **لاالشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون** ﴾[1] .

وَلَكن الإنسان وفي الجانب الإرادي منه رغم أنه يخضع لقدر الله ـ فهو وحده كلّفه الله بالتخيير للامتحان من الخروج عن طاعة الله ، ورفض شرعه واستبداله بغيره ، والرضى بالعبودية والذل لغير الله سبحانه : ﴿ **ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله** ﴾[2]. وإقامة الشريعة الإسلامية ، وتحكيم الشرع الكريم ، ورد حق التشريع في الحكم والسياسة وجميع شئون الحياة إلى الله ، إنما يهدف إلى رد الناس عن التمرد الكفري وردهم إلى الله وحده ، بحيث يُخضعون جميع شئون حياتهم كلها ، اعتقاداً وسلوكا لشرع الله عز وجل ، وبذلك يحققون توحيده سبحانه وإفراده في ربوبيته ، وألوهيته ، ويتحقق معنى « لا إله إلا الله » ، إذ لا حاكم سواه ، ولا يشرع للخلق فيحل لهم أو يحرم عليهم سواه ، ويتحقق كذلك معنى شهادة « أن محمداً رسول الله » فلا يؤخذ شرعه عن غيره ، ولا يطاع في التحليل والتحريم والتشريع سواه ، وبذلك يتحقق انتساب المرء إلى الإسلام ، ودينونته له وانقياده لتشريعه .

فالإنسان عبد لله يخضع قسراً للقوانين الطبيعية التي أودعها الله في الكون ، وأقام عليها النظام الكوني ، ويتوجب عليه أن يتم عبوديته لله بالخضوع له طوعاً في قوانينه التي شرعها للخلق ، وأنزلها على رسوله لتكون نوراً للناس وهداية لهم .

---

(١) سورة يس آية ٤٠ .

(٢) سورة البقرة آية ١٦٥ .

تاسعاً : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

لم تكن صفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأُمة من الأمم السابقة كما هي لأُمة المسلمين ، فقد ذكر القرآن عن بني إسرائيل أنهم : ﴿ **كانوا لا يَتَناهَون عن منكر فعلوه** ﴾[1] **وبينت السنة أن بني اسرائيل تهاونوا في النهي عن المنكر ،** فعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول : يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض » ثم قال : ﴿ **لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم** ﴾ إلى قوله ﴿ **فاسقون** ﴾ ثم قال : « كلا والله لَتَأمُرُنَّ بالمعروف وَلَتَنْهَونَّ عن المنكر ولَتَأخُذُنَّ على يد الظالم ولتأطِرُنَّهُ على الحق أطراً وَلَتَقْصُرُنَّهُ على الحق قصراً أو ليضربَنَّ الله بقلوب بعضكم على بعض ثم ليَلعَنكم كما لعنهم » رواه أبو داود ، والترمذي وقال : حديث حسن . هذا لفظ أبي داود ، ولفظ الترمذي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لما وقعت بنو اسرائيل في المعاصي نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا فجالسوهم في مجالسهم وَوَاكَلُوهُمْ وَشارَبُوهُمْ فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان متكئا فقال : لا والذي نفسي بيده

---

(١) سورة المائدة الآية ٧٨ .

حتى تَـأطِرُوهُم عـلى الحق أطـراً » . قـولـه « تـأطـروهم » . أي تعـطفـوهم « ولْتَقْصُرُونَهُ » : أي لتحبسنه .

وقد كان بنـو اسرائيل من أعـظم الأمم قبلنا لكنهم لم يقـوموا فعـلاً بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والمجاهدة في ذلك ، بل عامة جهـادهم إنما كـان لدفع عدوهم عن أرضهم ، ولذلك كانوا مآل مذمة وذلة .

أما امة الإسـلام فإنها من خـير الأمم للناس ، لمحبتهـا الخير لكـل الناس ، ولإحسـانها إليهم ، ولجهادهـا بالمـال والنفس لـدفـع المنكـر عن النـاس ، وتحقيق المعروف فيهم ، ولهذا قال أبو هريرة رضي الله عنـه : « كنتم خيرالنـاس للناس ، تأتون بهم في القيود والسلاسل حتى تُـدخلوهم الجنـة » .

وقد جعل الإسلام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجباً عـلى جميع أفـراد الأمة ، يؤدونه كل حسب طاقته ومكانه ، فمن استطاع تغيـير المنكر بيـده فعليه أن يغيره بيده ، ومن استطاع أن يغيره بلسانه فليغيره بلسانـه ، ومن عجز عن التغيـير باليد أو اللسان فلا أقـل من نكران القلب ، ومفـاصلة الشعور ، لأن قلب المؤمن طهور نظيف لا بد أن يأبى المنكر ويزدريه ويكرهه ، فعن أبي سعيد الخـدري رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من رأى منكم منكرا فليغـيره بيده ، فـإن لم يستـطع فبلسـانـه ، فـإن لم يستـطع فبقلبـه وذلـك أضعف الإيمان »[1] فجعل نكـران المنكر بـالقلب من الإيمان ، ولكنـه أضعفه ، وقـد نفى الإيمان عمن لا يحاول تغيير المنكر بواحد من الحالات الثلاث التي مرت آنفاً .

فعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما من نبي

---

(١) رواه مسلم .

بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ، ثم إنهاتخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون ، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل »[1]

ولكن كيف يتحقق للمسلم أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إذا لم تكن شريعة الله قائمة تحكم في الأرض ، فتغيير المنكر باليد إنما يكون من قبل الولاة والأمراء والحكام وكل الذين يقدرون على استخدام القوة في إزالة المنكر ، وأما التغيير باللسان فمن أهل العلم والفضل والنهى ، والتغيير بالقلب إنما يكون من عامة الناس ، وضعاف الخلق .

وقديما قال الخليفة الراشد عثمان بن عفان : « إن الله يزع بالسلطان ما لم يزع بالقرآن » وذلك لأن السلطان يستطيع بما يملك من قوة مادية ، وتأثير معنوي أن يغير المنكر ويزيله ويقضي عليه في مهده .

والتاريخ يشهد لما نقول ، فها هو الخليفة عمر بن عبدالعزيز استطاع أن يعيد حياة الخلافة الراشدة في عهده ، وقضى على الملك العضوض ، وعاد بالناس إلى الصلاح والفلاح ، لما كان في نفسه من إرادة ومحبة العودة إلى النهج الراشد في الحكم والتشريع .

ولسنا نغمض عيناً عن تركيا المسلمة التي عاشت تجربة الخلافة الإسلامية لفترة طويلة من الزمن ، ثم جاء مصطفى كمال أتاتورك فحملها بالسلطة والقوة على العلمنة والكفر ، واستطاع أن يربطها بعجلة الغرب الأوروبي ، وأن يفصمها عن أمها الحنون الأمة الإسلامية .

---

(١) رواه مسلم .

وكلنا شاهد على ما يجري في عالمنا من إصدار قرارات بمنع الحجاب الإسلامي ، ومصادرة الكتب الدينية ، ومحاولة قتل الفضيلة في نفوس الجيل ، ونشر الرذيلة والفساد ، وقد نجحت هذه الدعوات ، ووجدت لها تجاوبا من بعض الناس لكونها صادرة عن السلطة الحاكمة ، ولم يجد جهاد الأمة نفعا في كثير من أقطار المسلمين لوقف هذه الدعاوي الباطلة بسبب قوة السلطة ووقوفها بسطوة الحكم إلى جانب ما تدعو إليه من باطل وراجت سوقها لسببين :

الأول : لأنها صادرة من سلطة عليا .

والثاني : لأن النفوس المريضة طبعت على الفساد والمرض والهوى ، فوافق ما أرادت السلطة ما تهواه هذه النفوس .

إن للسلطة دوراً فعالاً في حرب الرذيلة أو نشرها ، وفي إعلاء المعروف والحق أو تدميره وقهره ، ومن يكابر عما نقول فإن الواقع يشهد لنا ضده ، ولهذا كان لابد من إقامة الحكومة الإسلامية ، وتحكيم الشريعة الغراء حتى يتحقق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في عالم الواقع المشهود .

آثار الحكم بغير ما أنزل الله

لهذا الحكم آثاره السيئة في حياة الفرد والجماعة وفساد الحياة كلها .

أولا : له آثاره في حياة الفرد بفراغ النفس وانحراف السلوك ، فإن النفس البشرية إذا لم تكن عامرة بالإيمان بالله وحده ، خاضعة لشريعته مزقتها الأهواء والشهوات ، وأورثتها الاضطراب والخلل والحيرة والفراغ ، فالعبد المؤمن يدين لإله واحد يطيع أمره ويخضع لسلطانه، فهو يعرف **طريقاً واحداً يسلكه** ولا تنازعه قوة أخرى تشده إليها كالعبد الذي يملكه سيد واحد ، يتلقى منه أوامره فيمتثلها ،ويعمل ما يرضي سيده فهو مستقر النفس مستريح البال ﴿ **ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا**) . إنهما لا يستويان .

وخواء النفس من الدين ، في فراغها من الانصياع لشريعة الله يبعث فيها الضجر والملل فتنفس عن ضيقها بالانحرافات السلوكية والشذوذ في المجتمع وتلك حقيقة يسجلها واقع العالم الحديث ، فهذه الدول الراقية قد استطاعت أن تحقق للإنسان متعة المادة ، ولكنها جعلته فارغ الروح ، يطارده هذا الفراغ فيهرب من الحياة الناعمة التي يعيشها ، بل يهرب من نفسه التي بين جنبيه ، فيلجأ إلى التخلص من ذلك الشقاء بالانتحار الذي يفقده الحياة إلى الأبد أو بإدمان المخدرات والخمور حتى ينسى الحياة وينسى نفسه بالسكر فترة من الزمن ، وتدل احصائيات هذه الدول على أن الأمراض العصبية وحوادث الانتحار ونسبة الجريمةوالشذوذ ترتفع من سنة إلى أخرى وتزداد من سنة إلى أخرى وتزداد من عام إلى آخر ، وحين يفقد أحدهم وسيلة الهرب من الحياة يلجأ إلى الشذوذ والخروج عن مظاهر المجتمع ، وليست ظاهرة (الهيبز ، والخنافس) سوى التعبير عن هذه الحقيقة .

ثانيا : وللحكم بغير ما أنزل الله آثاره السيئة في حياة الأمة ، لأن الأمة التي

تعيش بلا ضمير ديني لا يحول القانون الوضعي بينها وبين ارتكاب الجريمة والفساد في الأرض .

تقدمت الدراسات النفسية والاجتماعية والقانون لتحد من تفاقم الشر وانتشار الجريمة ولكنها باءت بالفشل ، ففي طبيعة البشر أن يتمرد على البشر ، إنه يشعر إزاء سائر الناس أنه إنسان وأنهم أناس وهذا الاشتراك في البشرية يقتضي أن الجميع سواء في الحقوق كلها ، فعلام يدين بالولاء والطاعة لقانون من وضع البشر ؟

أيدين له فرارا من جزاء مخالفة بحرمان دنيوي ؟ أو عقوبة دنيوية ؟ فالخطب يسير ففي استطاعته أن ينقض عرى هذا القانون عروة عروة ويهدم بناءه في غفلة من حراسة القانون ورجال الأمن ولايمتلك القانون عقوبة في الدار الآخرة .

أما التشريع الإسلامي فيستمد سلطته من الله الذي خلق الخلق : ﴿ **يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور** ﴾ وطاعة التشريع السماوي لايكفي في تحقيقها السلوك الظاهري في مرأى من الناس ، بل لابد فيها من خشوع القلب ، فالإفلات من عقوبة الدنيا بالتستر والمخاتلة لا يغني فتيلا عن عقوبة الآخرة ، وبهذا يتربى الضمير المؤمن الحي الذي يسهر على رعاية حرمات الله ، فإن القضاء لا يحل حراما ولا يحرم حلالا ، سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم خصومة بباب حجرته فخرج إليهم فقال : « يا أيها الناس إنما أنا بشر وأنه يأتيني الخصم ، فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأحسب أنه صدق فأقضي له بذلك فمن قضيت له بحق أخيه فإنما هي قطعة من النار فليأخذها أو ليتركها »[1] والأمة التي تحيد عن شريعة الله بعد أن كرمها الله بها تستحق عقاب الله ، وإذا كان الله قد أكرم هذه الأمة فلم يعاقبها عقوبة إبادة كما عاقب الأمم المكذبة السابقة ، **فإنه يعاقبها** بكوارث الحياة ، فيتخلى

---

(١) رواه مسلم .

عن نصره لها، ويذيقها بأس عدوها ، فتطحنها نكبات الهزيمة ، وتسام الذل والهوان ، ويومئذ لا تنفعها المعذرة حتى تفيء إلى شرع الله ، يقول الله تعالى في تهديد من يخرج عن شريعة الله : ﴿ **وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وان كثيرا من الناس لفاسقون** ﴾[1]

ولقد استبدلت كثير من دول الإسلام بشريعة الله قوانين البشر ومذاهبهم ورفعت شعارات براقة وأوهمت شعوبها بأن هذا هو السبيل لرخائها وعزها فماذا كانت النهاية ؟ كانت عار الهزيمة ، وذل الخيانة ، ومأساة التضليل وانهيار الاقتصاد ، وفساد المجتمع وضياع الفضيلة وإهدار القيم وتلك هي سنة الله في أمة أنزل الله في كتابه لها قوله : ﴿ **ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾[2] .

ثالثا : وللحكم بغير ما أنزل الله آثاره السيئة في فساد الحياة كلها . لقد استخلف الله الإنسان على الأرض ليعمرها بهداية السماء ، وسخر له ما في السموات والأرض جميعا منه ، ووفقه إلى الاستفادة من طاقات الكائنات وما أودعه الله فيها من قوى ، واستطاع الإنسان في العصر الحديث أن يبتكر ويبدع ، وحسن استخدام هذه الطاقات هو الذي يحقق الرخاء والأمن للبشرية ، وسبيل ذلك هو الوقوف في استخدامها عند شرع الله بالحكمة والعدل ، وهذا يعني أن تكون تلك القوى بيد مؤمنة مهتدية ، وإلا كانت وسائل هدم وخراب ودمار وفساد .

هذه الحقيقة يدركها الناس اليوم ، وهم يشاهدون التقدم العلمي الباهر في الاستفادة من طاقات الأرض والماء والهواء ، وقد تحول إلى صراع دولي مدمر ،

---

(١) سورة المائدة آية ٤٩ .

(٢) سورة الأنفال آية ٥٣ .

يوشك أن يأتي على بنيان الحضارة الإنسانية من القواعد ، ويحيل الحياة إلى جحيم لايطاق ، ولو اشتعلت حرب ذرية لأصبح الهواء سموما قاتلة ، والعمران براكين والجو نارا متقدة . فإذا أضفنا إلى ذلك كله ما تحمله المذاهب والقوانين البشرية من تدمير للأخلاق أدركنا كيف يكون فساد السموات والأرض على يد الإنسان المتمرد على شريعة الله الذي يجعل الحق تبعا لهواه .

إن الحق ناموس الله للوجود كله ، وهو ثـابت لايتغير ولا تتخلف سنتـه ، وأهواء الناس متعارضة ولو ساير الحق أهواءهم لفسدت أوضاع الحياة كلها ، تفسد حياة المكلفين بفساد أهوائهم وأعمالهم وتفسد سائر الكائنات لأنهم قائمون عليها بالتدبير تسخيرا من الله . والأمة التي أشرقت فيها رسالة الإسلام هي أولى الأمم لاتباع هذه الرسالة لما في ذلك من مجد وشرف ، وقد ظلت الأمة العربية لا ذكر لها في التاريخ حتى جاء الإسلام فارتفع شأنها ، وذاع صيتها ، وظل هذا الذكر يدوي في أذن الدنيا ما استمسكت به ، وتضاءل بقدر تخليها عنه ، ولن يعود لها ذكر مرة أخرى إلا به .

فهل من مجيب ؟